مدائن صالح وآثارها التاريخية في بعض وثائق الأرشيف العثماني

د. سهيل محمد صابان

أستاذ مشارك - قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

مدائن صالح وآثارها التاريخية في بعض وثائق الأرشيف العثماني

د. سهيل محمد صابان
أستاذ مشارك - قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

تعريف بمدائن صالح وموقعها

يمثل شمال الجزيرة العربية واحداً من أهم المواقع الجغرافية والتاريخية للحضارة العربية القديمة، وعلى رأسها منطقة مدائن صالح التي تعد مجالاً خصباً للدراسات التاريخية والحضارية المتعلقة بعرب شبه الجزيرة، وهجراتهم ودويلاتهم القديمة والتطورات السياسية والاجتماعية التي شهدها تاريخهم على مر العصور. وترجع أهمية هذه المنطقة إلى أنها تجمع بين خصائص المجتمع البدوي والمجتمع الحضري معاً، فضلاً عن قربها من المناطق المقدسة: مكة المكرمة والمدينة المنورة، ووقوعها في طريق الحج من الشام إلى الحجاز[1].

وتدل الكتابات الأثرية الموجودة على السطح إلى جانب عدد كبير من الكتابات المنقوشة عليها، على أن مدائن صالح قد شهدت حضارة متقدمة. واسمها القديم الوارد في القرآن الكريم[2] وفي الكتابات النبطية هو الحجر[3]، وهي ديار ثمود. وجبالها منحوتة في جوفها وبأسفلها وسفوحها. وهي جبال إذا رآها الرائي من بُعد ظنها متصلة ببعضها كالسلسلة. فإذا توسطها رأى كل قطعة منها منفردة بنفسها، يطوف بكل قطعة منها الطائف وحواليها الرمل، لا يكاد يرتقي. كل قطعة منها قائمة بنفسها، لا يصعدها أحد إلا بمشقة شديدة، وبها بئر ثمود الذي ورد في القرآن الكريم، وبها عيون وآبار بني سليم خاصة، وحذاءها جبل ليس بالشامخ. وللحجر ماض قديم وحضارة هائلة،

(١) السايح، إبراهيم، مدائن صالح من مملكة الأنباط إلى قبيلة الفقراء (القاهرة: دار البستاني، ٢٠٠٠م)، ص ١، ٤.

(٢) وذلك في قوله تعالى: «ولقد كذّب أصحاب الحجر المرسلين»، سورة الحجر، الآية: (٨٠)؛ وقوله تعالى: «وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون»، سورة النمل، الآية: (٤٨).

(٣) نصيف، عبد الله بن آدم، العلا: دراسة في التراث الحضاري والاجتماعي (الرياض: (د.ن)، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، ص ٨.

وبحذائها وادي القرى: العلا. وله من الآثار والعجائب والغرائب يكاد لا يصدقها العقل لولا أنها ماثلة للعيان. وأعظم تلك المشاهد الجبال المنحوتة التي ترشد السائح إلى الماضين، كانت لهم قوة ومهارة منقطعة النظير[١].

وتبدأ مدائن صالح من سهول وادي المعظم ووادي هدية إلى ما بعد العلا[٢]. وتقع في نصف الطريق ما بين المدينة المنورة وما بين معان[٣]. وكما سيأتي بعد قليل فإنها كانت معبراً لطريق الحج الشامي، كما كانت مسلكاً لسكة حديد الحجاز؛ حيث بنيت بها محطة، أعيد ترميمها على الأصل السابق من لدن هيئة السياحة والآثار في المملكة العربية السعودية.

(١) مراد، محمد عبد الحميد، مدائن صالح أروع البلدان السياحية في المملكة العربية السعودية (د.م.ن: ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م)، ص ٨٢-٨٣؛ الأنصاري، عبد القدوس، بين التاريخ والآثار (بيروت: د.ن)، ١٩٦٩م)، ص ٢٤٠-٢٤٨.

(٢) يوجد العديد من الكتب العثمانية التي تسرد منازل الطريق من الشام إلى المدينة المنورة في مكتبة السليمانية بإستانبول على وجه الخصوص، والمسافة بين كل محطة وأخرى، منها: حبري، عبد الرحمن، مناسك المسالك- مخطوطة في مكتبة السليمانية، مجموعة لالا إسماعيل أفندي، الرقم ١٠٤؛ والرسائل العلمية باللغة التركية، كما أورد الضابط الروسي عبد العزيز دولتشين أسماء تلك المحطات والمسافة بينها في جدول تحت عنوان: مسيرة المحمل السوري، حيث توجه إلى الحجاز في عام ١٨٩٨-١٨٩٩م، الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين إلى الحجاز سنة ١٨٩٨-١٨٩٩م (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م)، ص ١٧٧-١٧٨.

Guler, Mustafa, Osmanli Devletinde Haremeyn Vakiflari, Istanbul: Tarih ve Tabiat vakfi, 2002, p. 52.

(٣) الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين إلى الحجاز سنة ١٨٩٨-١٨٩٩م، ص ١٠٣.

المبحث الأول

مدائن صالح في وثائق الأرشيف العثماني

١ - مدائن صالح في سجلات الصرة[١]

المقصود بسجلات الصرة، هو النوع الخاص من السجلات التي تورد معلومات عن مخصصات أهالي مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس والشام إضافة إلى القبائل الواقعة على طريق الحج. وما يهمنا من تلك السجلات ما يخص القبائل العربية التي كان لها نفوذ وهيمنة في درب الحجيج. وتتناول تلك السجلات أسماء العاملين في القلاع الواقعة على هذا الطريق، ومخصصاتهم المالية بشكل مقتضب، كما تضم أسماء شيوخ القبائل الواقعة على طريق الحج ممن خصصت لهم الدولة مخصصات مالية معينة في السنة، تسلم إليهم أو إلى مندوبيهم مع موكب الصرة[٢] ضمن قافلة الحج الموجهة إلى الحجاز في موسم حج كل سنة.

وقد أورد السجل رقم ٢٤٢٢.EV.HMK.SR(لسنة ١١٩٢هـ/١٧٧٨م) من سجلات الأرشيف العثماني الكثيرة، معلومات عن سائر القلاع الواقعة على طريق الحج الشامي، كما يظهر ذلك في الخريطة العثمانية الملحقة بهذا البحث. ومن ضمن

(١) موضوع المخصصات المالية للقبائل الواقعة على طريق الحج الشامي، ولاسيما في محيط مدائن صالح من الموضوعات التي تناولها عدد من سجلات الأرشيف العثماني، وقد سبق للباحث نشر أحد تلك السجلات تحت مسمى: «مخصصات القبائل العربية من واقع الصرة العثمانية لعام ١١٩٢هـ/١٧٧٨م»، مجلة جامعة الملك سعود، مج٢٠، (الآداب)، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ١-٤٨، كما أن السجل رقم ٧٣٩٦ من الدفاتر المحولة من المالية MAD ٧٣٩٦ يتناول مخصصات القبائل لعام ١٢٠٣هـ/١٧٨٩م، وفيه تفصيلات دقيقة عن كل شخص استلم مخصصه المالي من الحكومة، مع الإشارة إلى القبيلة التي انتمى إليها.

(٢) موكب الصرة: الاسم الذي أطلق على الموكب الخاص بالأموال المرسلة من إستانبول إلى الحجاز في كل سنة، وأمين الصرة هو المسؤول عن الموكب ودفع المخصصات إلى أصحابها إذا وصل إلى الحجاز، سواء من أهالي الحرمين الشريفين أو القبائل أثناء مروره بمناطق نفوذها،

Atalar, Munir, Osmanlı Devletinde Sürre-i Hümayun ve Sürre Alayları, Ankara: DIB, 1991, p. 171.

القلاع التي ذكرت فيه وبالترتيب: قلعة معان[١] وقلعة المعظّم[٢] وقلعة مدائن صالح والقلاع الأخرى حتى المدينة المنورة. وقد أوضح السجلMAD ٧٣٩٦ (الذي يرجع لعام ١٢٠٣هـ/١٧٨٩م) العدد الكلي للعاملين في كل تلك القلاع، ومخصصاتهم المالية. وما يهمنا هنا هو ما يتعلق بمدائن صالح. وقبل إيراد المعلومات الخاصة بها لابد من الإشارة إلى أن هؤلاء العاملين في قلعة مدائن صالح من المنسوبين للقبائل القاطنة في المنطقة، التي كان يقوم أفرادها بتوفير الأمن اللازم لمحيط القلعة، وأنهم تعهدوا بذلك في الأوراق التي قدموها لأمير موكب الصرة. فمما ورد في الورقة السابعة والأربعين من هذا السجل ما يلي[٣]:

العاملون في قلعة المدائن:

- رشيد الخريشا. ومخصصه ١٢٠ قرشاً[٤].

(١) قلعة معان: ذكر سليمان شفيق كمالي باشا وصفاً لمعان بأنه يبعد عن خليج العقبة ثلاثاً وثلاثين ساعة، أي ١٠٠ كم، وعن ساحل البحر المتوسط ١٨٠ كم، مشيراً إلى أن به قلعة بناها السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٤-١٧٨٩م)، وأنها منهدمة، رحلة سويله مز أوغلي إلى بلاد الشام: ١٣٠٧هـ/١٨٩٠م، دراسة وترجمة وتحقيق: فاضل مهدي بيات (الأردن: جامعة آل البيت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ص ١٥٥.

(٢) قلعة المعظم: يشير نقش عثماني محفور على واجهة قلعة المعظم أن بانيها والي دمشق سليمان آغا، وأن السلطان العثماني ساعده فيها وذلك في سنة ١٠٣١هـ تحت إشراف حسن آغا، السايح، مدائن صالح من مملكة الأنباط إلى قبيلة الفقراء، ص ١٢؛ لكن موزيل ذكر أن اسمها القديم المحدثة، وأن التسمية الجديدة جاءت بعد عهد السلطان المعظم – الأيوبي- الذي أنشأ بركة ماء بها، وتقع على سكة حديد الحجاز، ويفصل بينها وبين تبوك منزل الأخضر، والمسافة بين المعظم وبين الحجر (مدائن صالح) أربعون كيلاً، أي مسير نصف يوم، ونقل عن عبد الغني النابلسي – الذي مر بهذه القلعة عام ١٦٩٤م - أن البركة الموجودة بجوار قلعة المعظم مربعة، وطول ضلعها مائتا ذراع، وسمك جدارها ذراع واحد، وهي مبنية من نفس الأحجار التي بني بها الحص، وبداخل الحصن عين غزيرة الماء؛ موسل، الويس، شمال الحجاز، نقله إلى العربية: عبد المحسن الحسيني (الإسكندرية: مطابع رمسيس، ١٩٥٢م)، ص ص ١٥٦، ١٥٩، ١٦١.

(٣) كما أورد ذلك أيضاً السجل الخاص بعام (١١٨٦هـ) EV.HMK.SR, 2221.Sy.2, 91 الذي تناول مخصصات المذكورين دون أي تغيير في الأسماء والمخصصات، وهذا يدفع الباحث إلى تشجيع الباحثين في مجال التاريخ للقيام بإجراء دراسة مقارنة بين تلك السجلات فيما يخص مخصصات العاملين في قلعة مدائن صالح، وأسمائهم ووظائفهم وكيفية تأدية تلك المخصصات إليهم.

(٤) قرش: وحدة نقدية أخذها العثمانيون عن الأوربيين. وبدأ ضربه في البلاد العثمانية في عهد السلطان سليمان الثاني (١٠٩٩-١١٠٢هـ/١٦٨٧-١٦٩١م). وكان من الذهب عيار ٨٣٣، ويزن ستة دراهم، وقطره أربعون مليمتراً، وهذا هو القرش الأحمر أي الذهبي، وإذا استخدم مجرداً عن الوصف قصد به القرش الفضي، ثم بدأت تتناقص عياراً ووزناً حتى أصبحت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني أقل من نصف درهم، لمزيد من التفصيل انظر:

Pakalin, Mehmet Zeki, Osmanli Tarih Deyimleri ve Terimleri Sozlugu, Istanbul: MEB, 1993, 2/326-328

ولتوضيح قيمة القرش نرجع إلى إحدى السجلات التي أشارت إلى أن الرأس الواحد من الأغنام كانت تسوى ثلاثة قروش، فهذا يدل على قيمة القرش في ذلك الزمن، الأرشيف العثماني، تصنيف2422 ,EV HMK.SR .

- طائفة[1] بلي[2]: سالم مسطح ٢٠ قرشاً. فارس : ١٥ قرشاً. علي أخو فارس ١٥ قرشاً. خضر سميحي ١٥ قرشاً. قره علي ١٥ قرشاً.

- طائفة الشرارات[3]: علي محمد ١٠ قروش. راشد موسى ١٠ قروش. رشيدان ٥ قروش. والمجموع: ٢٢٥ قرشاً.

- أما من طائفة الفقراء[4] من عنزة في المدائن فهم:

مبارك ٢٠ قرشاً. عجريف ١٠ قروش. مهوس ١٠ قروش، محمد عيد ١٠ قروش، دبيس ١٠ قروش، فالح ٨ قروش، رشيد ٨ قروش، يحيى عقلة ٥ قروش، منيزل ٥ قروش، ابن مبارك ٥ قروش. الشيخ فاضل الملحم ٢٠٠ قرش. الشيخ محمد آل طيار ٤٥ قرشاً، حمد السميران بن صالح ٤٥ قرشاً، الشيخ محمد المريخي ١٥٠ قرشاً. المجموع ٥٢٩ قرشاً. والمجموع الكلي: ٧٥٤ قرشاً.

وتبين مما سبق أن المسؤولين عن هذه القلعة وحماية الطريق كانوا من قبائل

(١) طائفة: يقصد بها قبيلة، أو جماعة من الناس، وهذا هو الاستعمال المعتاد في السجلات العثمانية، أما المراسلات الموجودة في مختلف تصنيفات الأرشيف العثماني فتستخدم لفظ القبيلة حيناً والعشيرة حيناً آخر، وذلك لفظين مترادفين.

(٢) بلي: قبيلة تسكن شمال الحجاز، يحدها من الشمال قبيلة بني عطية، وقبيلة الحويطات وادي داما ووادي الخضر، ومن الجنوب قبيلة جهينة وادي الحمض، ومن الشرق قبيلة عنزة سكة حديد الحجاز ووادي العلا، ومن الغرب البحر الأحمر، وهي من بلي بن عمرو بن مالك بن قضاعة، وتنقسم بلي إلى فروع كثير، منها: المعاقلة، والفريعات، والرموث، والحلبان والخوالا، والخشمان، والمشاعلة، والرواحلة، والفواضلة والعرادات، المغيري اللامي الطائي، عبد الرحمن بن حمد بن زيد، المنتخب في ذكر أنساب قبائل العرب، تحقيق: إبراهيم محمد الزيد (د.م.ن. ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص ١٥٩، ٤٦٦-٤٦٧.

(٣) الشرارات: قبيلة تقطن بشمال نجد، وتتخطى حدود شبه الجزيرة الشمالية، وتدخل بلاد الشام، وهي من عدة فروع، ويبلغ عدد التابعين منهم لجبل شمر ثم لآل سعود حوالي أربعين ألف نسمة، وتوجد هذه القبيلة على امتداد وادي سرحان وحاضرته طبرجل، وادي سرحان وادي الشرارات في شمال غرب الجزيرة العربية؛ الأفنس، سلمان ملفى الشراري (دمشق: (د.ن)، ١٤٣٠هـ/٢٠١٠م)، ص ٤٤-٤٥؛ وهي تنسب لبني كلب، وهي قبيلة كبيرة مبعثرة في بادية الشام، لم يذكرها المؤرخون المتقدمون بهذا الاسم؛ النواق، عبد الله بن قاسم، قبيلة الشرارات (بنو كلب): موطنهم وقول الكتاب والشعراء (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، ص ٨٩، ١١٩؛ وقد ورد ذكرها في العديد من الوثائق العثمانية التي حددت مشيختها ومناطق نفوذها على طول سكة حديد الحجاز. الأرشيف العثماني، تصنيف Y.PRK.SGE,10/61 .

(٤) الفقراء: جمع الفقير، أحد فخوذ قبيلة عنزة الشهيرة، وتقطن في منطقة العلا، وهي وحدة قبلية إثنولوجية من وحدات شمال شبه الجزيرة العربية، وتضم الجماعات والأسر التي تم تسجيلها في العصور الحديثة في السجلات الحكومية المعروفة بسجلات الصرة، وقد أورد التقرير الخاص بالبعثة الفرنسية المنتدبة إلى شمال الجزيرة العربية في العقد الأول من القرن العشرين الميلادي، معلومات موسعة عن الفقراء ووضعها السياسي والقضائي والاجتماعي في تلك الفترة، ونماذج من مخصصات شيوخها من الحكومة العثمانية، إضافة إلى علاقاتها مع القبائل الأخرى في المنطقة، السايح، مدائن صالح من مملكة الأنباط إلى قبيلة الفقراء، ص ١٠٩- ١٣٩.

المنطقة، فإذا ما استثنينا قره علي (بعدّ اسمه أعجمياً) من تلك القائمة، فإن بقية العاملين كانوا من أهل المنطقة، سواء أكانوا قريبين أو بعيدين نوعاً ما. وقد تبين أن لكل منهم مخصصاً سنوياً كان يسلم إليه مع موكب الصرة. أما الشيوخ فقد كانت مخصصاتهم مرتفعة، وكانت لهم مخصصات من قلاع أخرى واقعة في محيط القبيلة أيضاً. كما اتضح ذلك من القيد الوارد في أبيار غنم، الذي ذكر فيه الشيخ فاضل الملحم مجدداً ومخصصه المالي البالغ ٢٠٠ قرش[١].

وهناك سجلات أخرى للفترة السابقة واللاحقة لهذا التاريخ، يمكن إجراء مقارنة بينها وبين السجل الذي اقتبس الباحث منه تلك المعلومات. كما يوجد الكثير من الوثائق المتفرقة في مختلف تصنيفات الأرشيف التي تورد معلومات مقتضبة عن مخصصات شيوخ القبائل في مدائن صالح ضمن المخصصات العامة لكافة القبائل الواقعة على طريق الحج الشامي[٢].

٢ - ترميم قلعة مدائن صالح

مدائن صالح المشهورة بآثارها التاريخية، شهدت اهتماماً من الدولة العثمانية؛ لوقوعها على طريق الحج الشامي المتوجه إلى المدينة المنورة؛ إذ إن وصول الحجاج إليها كان إنجازاً مهماً في الاقتراب من الحجاز، ولاسيما في قطع المراحل الواقعة على درب القبائل من هذا الطريق. ولهذا السبب فإن أمير الحج الشامي كان يرسل بأخبار الحجاج من هذا الموقع ضمن المواقع الأخرى الواقعة على طريق الحج، مبشراً بذلك السلطان العثماني بسلامة الوصول إلى هذا الموضع[٣]. وقد أشارت وثيقة عثمانية

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف MAD. 7396, p. 47.

(٢) منها على سبيل المثال الأمر السلطاني الصادر لوالي الشام وأمير الحج الوزير محمد آل عظم (في ٢٥ ربيع الأول ١١٩٣هـ/١١ إبريل ١٧٧٩م) بتأدية مخصصات القبائل في مدائن صالح، الأرشيف العثماني، تصنيف C.EV. 462/23394.

(٣) تكثر الوثائق العثمانية التي هي خطابات أمراء الحج إلى الباب العالي المرسلة من مدائن صالح إلى العاصمة إستانبول في مختلف التواريخ، منها على سبيل المثال الوثائق الآتية: الأرشيف العثماني، تصنيف:
HAT.194/9614, 95/3855/K, 109/4334, 110/4349, 685/33294, 686/33340, 761/35967, 748/35347, 749/35404, 338/19331, 338/19331-A, 731/34748, 731/34748-A, 548/27039, 548/27093.

(مؤرخة في أوائل ١١٤٤هـ/يناير ١٧٣٢م) إلى معلومة مهمة للغاية، هي كون أشراف مكة المكرمة يقومون باستقبال الحجاج القادمين من طريق الحج الشامي في الموقع الموسوم بمدائن صالح، وأن هذا الأمر المتبع من أشراف مكة المكرمة من القواعد القديمة وشرائط الإمارة، وأنه بسبب عدم قيام هؤلاء بواجبهم تجاه الحجاج منذ سنوات عدة، فقد أصدر السلطان أمره إلى أمير مكة المكرمة الشريف محمد[١] بضرورة التوجه إلى مدائن صالح؛ لاستقبال الحجاج ذوي الابتهاج من هذا الموقع، وتوفير الأمن والراحة لهم من كل الوجوه، مع الإشارة إلى عدم التساهل في تنفيذ هذا الأمر[٢]. وعلى الرغم من بُعد هذا المكان عن إمارة مكة المكرمة، فإنه لدلالة واضحة على مدى الاهتمام الذي أبرزته الدولة العثمانية لحجاج بيت الله الحرام.

ومن هنا فقد أشارت وثيقة عثمانية إلى القلعة الواقعة بجوار مدائن صالح التي كانت تستخدم من قبل الجيش العثماني في حماية الطريق أولاً، وفي الإشراف على بعض البرك[٣] الواقعة بالقرب منها ثانياً، وفي توزيع المخصصات السنوية لبعض القبائل المجاورة ثالثاً[٤]. وقد أوردت وثيقة أخرى (مؤرخة في ٧ رمضان ١٢٠٩هـ/٢٨ مارس ١٧٩٥م) ذكرت بقيام والي الشام وأمير الحج سعيد باشا ببناء قلعة بجوار مدائن صالح، وأنه أودع فيها ستين نفراً من العساكر، وصدرت الموافقة السلطانية بتأدية

(١) هو الشريف محمد بن عبد الله بن سعيد، تولى إمارة مكة المكرمة بعد وفاة والده في محرم ١١٤٤هـ/١٧٣١م باتفاق الأشراف، ولم يستمر في الحكم طويلاً؛ بسبب عدم خبرته الإدارية، وإساءة علاقته بالأشراف، حيث عزل من منصبه، وعين مكانه عمه الشريف مسعود بن سعيد (في شعبان ١١٤٥هـ/كانون الثاني ١٧٣٣م)؛ جارشلي، إسماعيل حقي أوزون، أشراف مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني، ترجمه: خليل علي مراد (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص١٧٧.

(٢) الأرشيف العثماني، تصنيف C.AD. 1223

(٣) البرك: جمع بركة وهي مستنقع الماء، أنس، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، ط٢، (القاهرة: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ص ص ١١-٥٢.

(٤) فقد أفاد أحد دفاتر الأرشيف العثماني بالمخصصات المالية للعساكر المقيمين في القلعة المجاورة لمدائن صالح، التابعين لأمير الحج الشامي محمد باشا آل عظم حسب القيد الموجود على الدفتر في ٢٩ ربيع الأول ١١٩٣هـ، الأرشيف العثماني، تصنيف C.EV.٢٣٣٩٤/٤٦٢.

مخصصاتهم المالية من ميزانية ولاية الشام[١]، مع الإشارة إلى تعيين ثلاثين نفراً لقلعة عنيزة[٢]، وأعداد أخرى لقلعة هدية؛ بشرط قيامهم بتوفير الأمن للعابرين من الطريق من لدن القبائل القاطنة في المنطقة[٣].

كما أوردت وثائق أخرى معلومات عن مثيلاتها من القلاع الموجودة في المنطقة، التي بنيت لحماية الحجاج المارين بالمنطقة، وهي قلعة حيدر[٤] وقلعة دار الحواء[٥]، وقلاع أخرى عديدة بنيت في أماكن متفرقة بمختلف المواقع حتى المدينة المنورة. وكانت كل تلك القلاع تحتاج إلى الترميم والصيانة بين فترة وأخرى، كما تفيد بذلك مجموعة من وثائق الأرشيف العثماني. ومنها مراسلة جرت مع الباب العالي (في ١٦ جمادى الآخرة ١٢٧٧هـ/ ٣٠ ديسمبر ١٨٦٠م) أفادت بضرورة القيام بترميم قلعة مدائن صالح[٦].

ويدرج الباحث فيما يلي ترجمة مذكرة صادرة من مجلس الأحكام العدلية عن تفصيلات مسألة القيام بترميم قلعة مدائن صالح:

«سبق أن كُتب مضمون الأمر السلطاني السامي بضرورة القيام بترميم قلعة مدائن

(١) ولاية سوريا: الاسم الأكثر استخداماً في وثائق الأرشيف العثماني هو ولاية سوريا، ومقرها الشام، ولكن بعض المراسلات تفيد باستخدام ولاية الشام أيضاً، إلا أن هذا الاستخدام قليل، ومع أنه لا مشاحة في الألفاظ إلا أن الباحث تقيد بما أوردته الوثائق من الأسماء في هذا الخصوص، والجدير بالذكر - وعلى عكس الأول - فإن المراسلات التي توجه إلى ولاية سوريا، عادة ما يخاطب بها «والي الشام».

(٢) قلعة عنيزة: ذكر سليمان شفيق كمالي باشا معلومات عن هذه القلعة أثناء رحلته إلى الحج مع الموكب عام ١٣٠٧هـ/١٨٩٠م؛ حيث أشار إلى أنها تقع بالقرب من التل الموسوم بظهر عنيزة، وهذا التل حجري أسود، ارتفاعه ما بين ٩٠ و ١٠٠ متر، ومحيطه ٦٫٥ كم، وأن المسافة ما بين قلعة الحسا وهذا الموقع ١١ ساعة، أي ٧٧ كلم. وتبدو القلعة من الخارج منتظمة، وهي في الواقع أمتن وأحكم بناءً من قلعتي قطرانة والحسا، إلا أنها منهدمة من الداخل؛ بسبب تركها على حالها وعدم الإقامة فيها، مشيراً إلى أن باب القلعة قد سرق من الأهالي. كما ذكر بوجود حوض ماء على بُعد مائتي متر منها، طوله عشرون متراً وعمقه ثمانية أمتار، رحلة سويله مز أوغلي إلى بلاد الشام: ١٣٠٧هـ/١٨٩٠م، دراسة وترجمة وتحقيق: فاضل مهدي بيات (الأردن: جامعة آل البيت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ص ١٥٣-١٥٤.

(٣) الأرشيف العثماني، تصنيف C.AS.1061/46703 وقد أوردت الوثيقة معلومات تفصيلية عن مخصصات العمال، وأفراد الجيش المرافقين لهم، واختيار ثمانية أشخاص من أهل المنطقة لحماية القلعة وصيانتها بشكل دائم، كما أشارت إلى مخصصاتهم المالية تدفع من ميزانية ولاية سوريا.

(٤) الأرشيف العثماني، تصنيف HAT.704/33821/A.

(٥) الأرشيف العثماني، تصنيف HAT.706/33898/A.

(٦) الأرشيف العثماني، تصنيف .I.MVL.445/19815

صالح الواقعة على طريق الحج إلى قائممقام[١] المدينة المنورة؛ بناءً على الإشعار الوارد بهذا الخصوص. وفي خطابين من الجواب الوارد مشتركاً من القائممقام المذكور وموظف الأبنية العالية[٢] في المدينة المنورة فضيلة الأفندي إلى الباب العالي وإلى القيادة العسكرية، المحولتين إلى مجلس والا[٣] مع المذكرة الصادرة بهذا الخصوص؛ بغية النظر فيها، فقد تبين من فحواها أن عدد العربان القاطنين بجوار القلعة المذكورة كثير، وأن إرسال العمال؛ للقيام بإجراء الترميمات اللازمة وإرسال المواد المطلوبة، بحاجة إلى سوق قوة عسكرية مرافقة[٤]؛ لحمايتهم، وأن ذلك سوف يكلف مصروفات كثيرة، وأن تفويض أمر القيام بإجراء تلك الترميمات إلى الشخص المسؤول عن محافظة الصحراء (من تلك المنطقة) سوف يسهل عملية الترميم ويساعد على إنجازها بسهولة. وبناءً على ذلك فقد جرت استشارة أمين الصرة السابق والأسبق مصطفى أفندي وجناب التشريفاتي[٥] في

(١) قائممقام: هو الشخص الذي يقوم بمقام الغير، وفي الاصطلاح الإداري العثماني يطلق على أكبر منصب إداري في القضاء؛ ، صابان، سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ص ١٧٠ ؛ وهذا يدل على أن المدينة المنورة في ذلك الوقت كان قضاءً تابعاً لولاية الحجاز، وقد تحولت بعد هذا التاريخ، وبالتحديد بعد صدور قانون الولايات (عام ١٨٦٤م/١٢٨٠هـ) إلى محافظة، ولهذا نجد المراسلات من الباب العالي تصدر دائماً باسم محافظة المدينة المنورة.

(٢) هذا الموظف مسؤول عن المباني التي كان يتم بناؤها من ميزانية الدولة في المدينة المنورة، وكان المشرف المباشر، سواء على الكشف الذي يتم من خلاله إعداد ميزانية لمشروع البناء أو الإشراف على أعمال البناء والانتهاء منه، وقد ضم الأرشيف العثماني مجموعة من التقارير وكشف بالمصروفات التي أعدها أمناء البناء في المدينة المنورة في مختلف العهود، منها: الأرشيف العثماني، تصنيف

D.BSM.BNE.d.16015. C.ML.65/2997, 535/21978. C.EV.318/16177, 597/30145. HAT.550/27135-A, 555/27457

(٣) مجلس والا: الاسم المختصر لمجلس الأحكام العدلية، أنشئ عام ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م؛ للنظر في الدعاوى الواقعة بين الحكومة وأفراد الشعب، ووسعت صلاحياته عام ١٢٧٨هـ/١٨٦١م، فانقسم إلى ثلاث دوائر، هي: الإدارة والتنظيمات والعدل، وقد ألغي عام ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م، وأنشئ بدلاً منه مجلس شورى الدولة؛ صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٤) سوق القوة العسكرية، يدل على عدم وجود قوة عسكرية في المنطقة، كما يدل في الوقت ذاته على وجود خلل أمني فيها، ولاسيما وجود عدد من القبائل بها والتي أشارت إليها الوثيقة، فكان الخوف وارداً بقوة من قيامها بالهجوم على عمال البناء.

(٥) التشريفاتي: كلمة عربية مأخوذ من التشريف أي التكريم. والمقصود باللفظ هنا المسؤول عن المراسم السلطانية في الدولة العثمانية، وهي وظيفة مهمة استحدثت في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م)، وكان يطلق على القائم بهذه الوظيفة تشريفاتي أفندي، أو تشريفاتجي أفندي، ويقوم بتنفيذ المراسم السلطانية في المناسبات بحسب ما هو موجود في الدفتر الموجود بين يديه، وكان في الوقت ذاته يقوم بمسك دفاتر الرسوم الخاصة بأركان الدولة من الوزراء وغيرهم؛ صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص ٧٤.

الديوان السلطاني سعادة الأفندي، فقد ذكروا في جوابهم أنه بالنظر لإرفاق عدد كاف من العساكر الخيالة كل سنة بقافلة الحج الشامي وإرسالهم إلى مدائن صالح، وانتظار هؤلاء العساكر في مدائن صالح لمدة شهرين إلى حين عودة الحجاج من الحج، فبالإمكان قيامهم بالإشراف على كافة الأمور الخاصة بالقلاع الواقعة في المكان المذكور؛ بحيث يتصرفون بموجب أحكام التعليمات التي تعطى إليهم، على أن يتم جلب العمال من الشام الشريف[1]. ولذلك فمن المناسب تحويل أمر القيام بالترميمات إلى المحافظ المذكور. كما أن الأمير المشار إليه أيضاً قد ذكر أنه بالنظر لبُعد المكان الذي تقع فيه القلاع المذكورة التي تجرى عليها الترميمات عن الشام الشريف، فإن جلب العمال منها إلى الموقع سوف يكلف مصروفات زائدة، لذلك فإذا ما تم (توفير العمال للقيام بـ) إجراء الترميمات اللازمة بمعرفة القائممقام (أي قائممقام المدينة المنورة) المشار إليه والموظف المذكور، كما في السابق، ولاسيما قد تبين أن سوق قوة عسكرية إلى الموقع ثم القيام بإجراء الترميمات المذكورة (من المدينة المنورة) غير مناسب؛ للمصروفات الزائدة التي تكلفها عملية الترميم. ولهذا السبب وبالنظر للرجوع إلى القيود السابقة فقد اتضح أن القيام بترميم القلعة المذكورة سوف يتم بمصروف جزئي بسيط إذا أحيل أمرها إلى المحافظ المشار إليه؛ بحيث لا يحتاج إلى الاستئذان (من الباب العالي)، بل يراجع الشام الشريف، ويقوم المحافظ المذكور بإجرائها بحسب التعليمات التي تعطى إليه. ومن هنا فقد رؤي توجيه أمر القيام بذلك إلى المحافظ المذكور، وأن يجلب معه العدد الكافي من العمال بشرط أن يرافقهم أحد الموظفين من الشام، والاهتمام بالتقليل من المصروفات، ثم إرسال دفتر المصروفات إلى الخزينة الجليلة. على أن يتم إبلاغ دولة الباشا والي الشام وجناب القائد العسكري العام ونظارة المالية الجليلة بذلك. والأمر والفرمان لحضرة من له اللطف والإحسان.

١٥ صفر ٢٧٨(١هـ/٢٢ أغسطس ١٨٦١م)

(١) إن إرسال العمال من الشام يدل على عدم وجود من يقوم بأعمال البناء على الطراز الحكومي في منطقة مدائن صالح.

(أختام أعضاء مجلس الأحكام العدلية)» [١]

٣ - ترميم البرك الكائنة بالقرب من مدائن صالح

وقام العثمانيون بترميم البرك الموجودة بالقرب من مدائن صالح مرات كثيرة. حيث أفاد العديد من الوثائق في مختلف التواريخ بقيام أمير الحج بترميم تلك البرك، وملئها بالماء[٢]. منها الوثيقة التي أفادت أن طول البركة الواقعة بالقرب من مدائن صالح والتي تم ترميمها في موسم حج (١٢٣٨هـ/١٨٢٣م) بموجب الخطاب الذي أرسله أمير الحج الشامي (في ٢٥ محرم ١٢٣٩هـ/١ أكتوبر ١٨٢٣م) قد بلغ بالذراع المعماري سبعة وسبعين ذراعاً، وعرضها خمسة وسبعين ذراعاً، وعمقها ثمانية عشر قدماً، وأنه تم ترميمها بالكامل وملئت بالمياه[٣]. ما يدل على أهمية توفير المياه في هذه البرك ولاسيما أن الحجاج كانوا يستريحون في مدائن صالح من عناء الطريق مدة من الزمن. والجدير بالذكر أن معظم الوثائق تفيد بمعاناة الحجاج من قلة المياه في هذا الموضع. إلا أن وثيقة (مؤرخة في ٦ ربيع الثاني ١٢٣٩هـ/١٠ ديسمبر ١٨٢٣م) تحدثت عن كثرة نزول الأمطار في مدائن صالح في هذا التاريخ، مشيرة إلى أن الحجاج تخلصوا من مشكلة قلة المياه[٤]. وفيما يلي «ترجمة الخطاب العربي[٥] الوارد من ناظر وأوده باشي[٦] منطقة

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف I.MVL. 452/20204.

(٢) تعتمد البرك في الغالب على مياه الأمطار، كما تفيد بذلك الوثيقة الآتية التي تشير إلى هطول أمطار غزيرة في مدائن صالح، مما يوفر لها المياه لمدة أربع/خمس سنوات، إلا أن البرك التي خلت من مياه الأمطار؛ بسبب الفحط أو غيره كان يتم جلب المياه إليها من أماكن أخرى بحسب ما أفادت به بعض الوثائق التي أشارت إلى الأوامر الصادرة إلى المسؤولين في الشام بتوفير مياه الشرب في البرك الواقعة على طريق الحج، الأرشيف العثماني، تصنيف :DH.MKT.841/6
XVII. Ve XVIII; Sak, Izzet, Yuzyillarda Osmanli Hac Menzilleri, Cemal Cetin. Konya: Selcuk Unv. Ilahiyat fak, Dergisi, Vol.19 (Bahar 2005), pp.199-260.

(٣) الأرشيف العثماني، تصنيف HAT.550/27129/A, 706/33898-C

(٤) الأرشيف العثماني، تصنيف HAT.704/33821-B

(٥) كان الخطاب العربي موجوداً ضمن هذا التصنيف بالأرشيف العثماني، وقد صوره الباحث؛ إلا أنه لرداءة خط صاحب الخطاب، اضطررت إلى ترجمة النص العثماني الذي هو ترجمة للخطاب العربي، إلى اللغة العربية من جديد.

(٦) مصطلح أوده باشي: كان يطلق على أقدم الضباط في سرايا الآغاوات بالجيش الإنكشاري، بعد رئيس أود باشي وأوده كتخداسي... وهنا يقصد به المحافظ المسؤول عن القلعة؛ Sertoglu، Midhat، Osmanli Tarih Lugati، Ist. Enderun yay، ١٩٨٦، p. ٢٣٩.

قلعة المعظم الواقعة على طريق الحجاز، إلى أمين المستودعات[1]:

صاحب السعادة والمروة متمم أمور مستودعات الحجاز أمين المستودع جناب السيد محمد أفندي؛

بعد السلام أخبركم إن سألتم عنا، وأبشركم والمسؤولين وكافة حجاج المسلمين أن منطقة المعظم التي أنا ناظر عليها قد شهدت هذه السنة المباركة أمطاراً غزيرة وغلالاً كثيرة، لله الحمد والمنة، وسالت الأودية بكثرة تلك الأمطار، وامتلأت الآبار حتى فوهاتها بالماء. وهذه المياه الكثيرة المتراكمة بمشيئة الله تعالى سوف تكفي لحجاج المسلمين أثناء مرورهم بها لمدة أربع/خمس سنوات إن شاء الله تعالى. كما هو أملنا. وأوده باشي (أي محافظ) القلعة المذكورة قد أخذ مع ثلاثة أفراد من أتباعه كفايتهم من الغلال وكافة ما يحتاجونه من المؤن واللوازم، إلى محلهم. وأنا أيضاً لما عدت إلى محلي رأيت أن أكتب إليكم هذه البشارة، وأرسلت الخطاب مع أخي فياض. ولما يصل إليكم وتطلعون على مضمونه، فالمرجو أن تُطلعوا دولة ولي النعمة عليه، وتفيدوا به لكافة أمة محمد. كما أرجو أن تقدموا مع فياض ما تودون إخباري به. وإن كان لكم خطابات إلى المدينة المنورة أو مكة المكرمة يمكنكم إرسالها معه، وسوف يتم فيما بعد إرسالها إلى محلها إن شاء الله. وقد تم ترميم القلاع الواقعة على طريق الحج المحتاجة منها إلى الترميم بموجب أمر ولي النعمة. وإذا نمى ذلك إلى علمكم الشريف فالمرجو أن أبقى في خاطركم العطر على الدوام.

في ٩ ربيع الثاني ١٢٣٩هـ (١٣ ديسمبر ١٨٢٣هـ) الداعي ناظر منطقة المعظمة أوده باشي: صالح» [2].

(١) أي أمين مستودعات قافلة الحج، وتكمن وظيفته في توفير المواد الغذائية للعاملين في موكب الحج والحجاج الفقراء، وقد أوردت سجلات عديدة مصروفات المواد الغذائية التي اشتريت من تجار إستانبول وصرفت في طريق الحج، الأرشيف العثماني، تصنيف EV.HMH.d.314, 317, 4314, 8511, 8524, 8548

(٢) الأرشيف العثماني، تصنيف HAT.704/33821-B

٤ - وصول خط البرقية إلى مدائن صالح وحمايته من هجوم القبائل

لقد تبين من إحدى الوثائق أن خط البرقية وصل إلى مدائن صالح في (٢٤ رجب ١٣١٨هـ/١٧ نوفمبر ١٩٠٠م)[١]. وأفادت الوثيقة أن هذا الموقع اتخذ مركزاً لخط البرقية الذي ورد الحديث عنه فيما بعد كثيراً. كما أفادت وثيقة أخرى بتعيين عشرة أشخاص من العربان؛ لتوفير الأمن اللازم لهذا الخط من مركز المدورة[٢] وحتى مدائن صالح، وتقديم المساعدة اللازمة في تبديل عمدان الخط ونقلها[٣]، مع الإشارة إلى تكريم بعض شيوخ القبائل في هذه المنطقة بمنحهم الأوسمة المناسبة من الدولة[٤].

كما ذكرت خطوط البرقية بمدائن صالح في العديد من الوثائق الأخرى التي تحدثت عن تبديل عمدان البرقية من هذا الموقع إلى تبوك وركز العمدان الحديدية بدلاً من العمدان الخشبية[٥]، وكذلك عن ضرورة الحفاظ على أسلاك خط البرقية المارة بمدائن صالح إلى الحجاز[٦]. حيث ذكرت وثيقة بأنه تم الانتهاء من ترميم خط البرقية الواقع بين مدائن صالح وبين دار الحمراء (في ١٩ ذي الحجة ١٣٢٠هـ/١٩ مارس ١٩٠٣م)[٧]، وأن عدداً من العساكر الهجانة وضعوا على أهبة الاستعداد؛ للقيام برقابة هذا الخط، والعمل على القبض على المتجاسرين ممن يقومون بتخريبه (في ١٩ ذي القعدة ١٣٢٣هـ/١٥ يناير ١٩٠٦م)[٨].

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT.2429/13

(٢) المدورة: الاسم الجديد للموقع الموسوم بـ جغيمان الواقع بين المرتفعات. وهو المكان الذي بنيت فيه محطة سكة الحديد. وتقع مباشرة في جوار المنزل القديم مع منازل طريق الحاج باسم سرغ؛ موسل، شمال الحجاز، ص ١٦٣.

(٣) الأرشيف العثماني، تصنيف I.PT.13/1319.C-2

(٤) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT.2527/42

(٥) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT.2576/7, 2589/99

(٦) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT.2546/101, 2576/7, 2589/59

(٧) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT.2600/133

(٨) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT.1041/60. Y.PRK.UM.78/1

وقد تعددت الوثائق التي تحدثت عن القيام بترميم خط البرقية المذكور[١]؛ ما يدل على أنه كان يتعرض للقطع بين الفينة والأخرى. بل إن وثيقة أشارت إلى تخريب بعض الأقسام الواقعة من هذا الخط بين مدائن صالح ودار الحمراء من لدن بعض القبائل؛ بسبب نزاع وقع بينها في الإشراف[٢] عليه وحمايته[٣]. ما أدى إلى تشكيل مفرزة عسكرية؛ للقيام بحماية هذا الخط بشكل مستمر[٤].

وقد أرسل الباب العالي إلى محافظة المدينة المنورة (في ٢٣ رجب ١٣٢٤هـ/١٢ سبتمبر ١٩٠٦م) تخبرها بضرورة اتخاذ التدابير اللازمة لحماية خط البرقية «بناءً على قيام بعض العربان بكسر ثلاثين عموداً للبرقية في مسافة تبعد عن موقع «هدية» بساعتين ونصف، كما أنهم قاموا بالتصدي لعريف البرقية، ونهبوا ناقته وأغراضه وملابسه، مع ضربه ضرباً مبرحاً أدى إلى جرحه، إضافة إلى تهديدهم بأنهم سوف يقدمون قريباً إلى مركز البرقية في «هدية» ويخربونه، مما يجب القيام بتأديبهم؛ حماية لحياة اثنين من المحافظين العاملين في هذا المركز وحتى لا يقوم غيرهم بعمل مماثل، وتعطيل خط البرقية»[٥].

وفي الوقت ذاته فقد أشار العديد من الوثائق إلى تكريم بعض شيوخ المنطقة بالأوسمة المناسبة؛ بسبب قيامهم بحماية هذا الخط من التخريب. من ذلك على سبيل المثال: تكريم الشيخ «هارون»[٦] بالوسام العثماني؛ بسبب الخدمات التي قدمها في

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT.1047/68, 1241/55, 2600/133,

(٢) وكما يتضح من هذه الوثيقة ومن الوثائق الأخرى في الأرشيف العثماني أن الدولة لما رأت تعرض خطوط البرقية للهجوم من القبائل، فقد أحالت أمر محافظتها إلى أعيان المنطقة، مقابل مبالغ مقطوعة؛ بغية حمايتها. وهذا أدى إلى التنافس على الإشراف على الخط من قبائل المنطقة، منها على سبيل المثال: الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT.1043/44

(٣) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.TMIK.S.49/48

(٤) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT.1041/60. Y.PRK.UM.78/1

(٥) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT.1116/17

(٦) أفادت الوثيقة العثمانية أنه شيخ بني عطية، وأنه متعهد خط البرقية من معان إلى مدائن صالح. الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT.1043/44

الحفاظ على الخط (في ٢٦ ذي القعدة ١٣٢٣هـ/٢٢ يناير ١٩٠٦م)[١]، وتكريم مدير خط البرقية في مركز مدائن صالح شريف أفندي بالدرجة الثالثة؛ تقديراً للخدمات التي قدمها في هذا الصدد[٢]. كما جرى تكريم شيخ مشايخ بلي سليمان بن رفادة باشا[٣]؛ بسبب الجهود التي بذلها في الإشراف على نقل عمدان خطوط البرقية من أبيار غنم وحتى الوجه[٤].

٥ - تشكيل الإدارة العثمانية في مدائن صالح

الحقيقة أن مدائن صالح - وكما تبين مما تم عرضه بعاليه - كان مركزاً وسيطاً بين الشام والمدينة المنورة. وبناءً على ذلك فقد كان بها مستودع للغلال؛ لتوفير حاجة العاملين في قلعتها والقلاع القريبة منها إلى الغلال اللازمة. فقد أفادت مجموعة من الوثائق العثمانية بضرورة توفير الغلال المطلوبة لمدائن صالح. حيث أشارت وثيقة (مؤرخة في ٣ رجب ١٢٧٦هـ/٢٦ يناير ١٨٦٠م) بإرسال الحنطة والشعير المرسلة من مصر إلى مدائن صالح، على الرغم من إبلاغ محافظ الصحراء أحمد يوسف آغا بعدم وصولها[٥]. كما صدرت أوامر الباب العالي (في ٨ رجب ١٢٧٦هـ/٣١ يناير ١٨٦٠م) بضرورة سوق الكمية المطلوبة من الغلال إلى مدائن صالح من خلال ميناء الوجه، وإرسال أحد الموظفين من جدة بمتابعة الموضوع والإشراف على الإرسالية من ميناء

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT.1043/44

(٢) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT.1243/23. I.TAL.452/1326/Ca-140

(٣) سليمان بن عفنان بن عمار بن رفادة؛ ولد تقريباً في حدود سنة (١٢٨٠هـ/١٨٦٣م). عين شيخاً لقبيلة بلي في قضاء الوجه. وقد منح لقب الباشوية من الدولة العثمانية، بناءً على قيامه بأعمال جليلة قدمها لها، منها تكفله بنقل أعمدة خط البرقية من الشام إلى منطقة تبوك، وتبرعه بتسعمائة رأس من الإبل إلى الجيش العثماني، وقد أشار محافظ المدينة المنورة إلى الخدمات المتميزة التي قدمها للدولة (في خطابه إلى نظارة الداخلية في ٧ ربيع الأول ١٣٣٣هـ/٢٣ يناير ١٩١٥م) طالباً الاستمرار في تأدية مخصصات الشيخ سليمان؛ تقديراً لمكانته وخدماته للدولة، توفي عام (١٣٣٥هـ/١٩١٧م)؛ صابان، سهيل، مداخل بعض أعلام الجزيرة العربية في الأرشيف العثماني (الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٤٢٥هـ)، ص ٧٨-٧٩.

(٤) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.I.UM (E)12-56

(٥) الأرشيف العثماني، تصنيف A.MKT.UM.392/64

الوجه[١]. مع التأكيد في وثيقة أخرى على ضرورة وجود الموظف المذكور في الوجه وتوفير أمر إيصال الغلال إلى مدائن صالح، وتسلمه لسند تسليمها[٢]، مع أن وثيقة ثالثة أشارت بعدم قدوم محافظ الصحراء المشار إليه إلى الوجه؛ لاستلام تلك الكمية من القمح والغلال[٣].

وعلى الرغم من أهمية مدائن صالح فإن التشكيلات الإدارية لم تؤسس فيها إلا متأخراً. فقد أفادت وثيقة بتحويل مدائن صالح -في التشكيلة الإدارية العثمانية الأخيرة للمنطقة- إلى بلدة (في ٢٩ ذي القعدة ١٣٣٢هـ/١٩ أكتوبر ١٩١٤م)، واستئجار أحد المنازل؛ للإدارة الحكومية فيها؛ وذلك بناءً على أن جدران القلعة التي اتخذتها الحكومة مركزاً لها آيلة إلى السقوط[٤]. وذكرت وثيقة أخرى (مؤرخة في ١٢ ربيع الأول ١٣٣٤هـ/٦ مايو ١٩٠٦م) بمنح الوسام المجيدي لمدير بلدة مدائن صالح محمد خالد أفندي[٥] من الدرجة الخامسة[٦]. كما ضمت ملاحق وثيقة عثمانية (مؤرخة في ٢٧ شعبان ١٣٣٥هـ/ ١٨ حزيران ١٩١٧م) قصاصات صحفية عما نشرت في صحيفة لوزان (السويسرية) وكذلك في صحيفة «لو تريبون دو جنوا» تحت عنوان «مدائن صالح والخط الحجازي» و«العَلم العربي»[٧].

وتجدر الإشارة هنا إلى مستشفى مدائن صالح. فقد أوردت إحدى الوثائق العثمانية

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف A.MKT.UM.393/60

(٢) الأرشيف العثماني، تصنيف A.MKT.UM.393/70

(٣) الأرشيف العثماني، تصنيف A.MKT.UM. 407/18

(٤) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MB.HPS.29/8, 29/42

(٥) أفادت الوثيقة العثمانية السبب الذي بموجبه تم منح الوسام لمدير بلدة مدائن صالح محمد خالد أفندي بأنه بناءً على الجهود التي بذلها في القبض على عبد الغني العريسي - صاحب صحيفة المفيد - وصديقه الأمير عارف الشهابي، الأرشيف العثماني، تصنيف DH.KMS.36/27

(٦) الأرشيف العثماني، تصنيف I.TAL.507/1334/Ra-24.DH.KMS.36/27

(٧) الأرشيف العثماني، تصنيف HR.SYS.2436/47 ، والمقالان باللغة الفرنسية ملحقان بالوثيقة العثمانية التي لم تتحدث عن مضمونهما بالتفصيل.

وهي في الأصل فرمان سلطاني، معلومة عن بعض موظفي هذا المستشفى. حيث ذكرت الوثيقة (المؤرخة في ١١ ربيع الآخر ١٣٣٦هـ/٢٤ يناير ١٩١٨م) أنه «بناءً على قيام يحيى أفندي[١]، وعز الدين أفندي[٢]، ومحمد بن محمود[٣] بنهب المبلغ المقدر بسبعة عشر ألفاً وثلاثمائة وعشرة قروش من صندوق المستشفى، تاركين فيه منشورات ضد الحكومة والأتراك، فإنه بالاستناد إلى المادة ١٣٧ من قانون الجزاء قد صدر الحكم عليهم بالإعدام، وإسقاطهم عن الحقوق المدنية، والحجز على أموالهم وأملاكهم، وتحصيل المبلغ المذكور من المشار إليهما: يحيى وعز الدين بالتساوي، ومحاكمتهم مجدداً بعد القبض عليهم، حيث صدر القرار في حقهم غيابياً من ديوان الحرب العرفي بالمدينة المنورة. وناظر الحربية مسؤول عن تنفيذ هذا القرار.

١٤ ربيع الآخر ١٣٣٦هـ

(السلطان: محمد رشاد) التوقيع

وكيل الصدر الأعظم وناظر الحربية (أنور) : التوقيع»[٤]

(١) يحيى أفندي: أفادت الوثيقة أنه موظف الإعاشة في مستشفى مدائن صالح ووكيل الضابط بها، الأرشيف العثماني، تصنيف DUIT.174/69.

(٢) عز الدين أفندي: ذكرت الوثيقة أنه كان وكيل موظف الحسابات بالمستشفى، المرجع السابق، الأرشيف العثماني، تصنيف DUIT.174/69.

(٣) محمد بن محمود: أشارت الوثيقة إلى أنه موظف الصحة وغسال المستشفى، المرجع السابق، الأرشيف العثماني، تصنيف DUIT.174/69.

(٤) الأرشيف العثماني، تصنيف .DUIT.174/69

المبحث الثاني: آثار مدائن صالح التاريخية

١ - اهتمام الباب العالي بمدائن صالح

وبناءً على استعراض ما سبق من الوثائق فإن اهتمام الحكومة العثمانية بمدائن صالح كان مبنياً على كونها واقعة على طريق الحج؛ لتوفير الأمن وماء الشرب والغذاء وغير ذلك مما يحتاج إليها الحجاج أثناء مرورهم بالمنطقة. أما اهتمامها بالآثار التاريخية الموجودة بها فقد كان في الدرجة الثانية، كما بدا للباحث من واقع مراسلات الباب العالي إلى السلطات الإدارية في المنطقة. حيث جاء هذا الاهتمام متأخراً بعض الشيء. والسبب الذي أدى إلى الاهتمام العثماني بها - كما سيأتي - توجه عدد من الرحالة الأجانب إلى المنطقة. فقد أشارت إحدى الوثائق التي كانت في الأصل برقية من الباب العالي إلى ولاية سوريا (في ٢٤ ذي الحجة ١٣١٥هـ/١٦ مايو ١٨٩٨م) وفحواها: «على الرغم من أن الدكتور النمساوي مجيل (موزيل)[1] قد توجه من معان إلى العقبة؛ لإجراء بعض الأبحاث العلمية الأثرية، إلا أنه أعيد من العقبة إلى معان من قبل خمسة أنفار من الضبطية. وقد أفادت السفارة النمساوية أن المذكور يريد التوجه إلى العقبة مجدداً ومنها إلى نجد، فقد طلبت عدم منعه من سفره الذي يعتزمه. ولذلك فالمرجو

(١) ألويس موزيل (١٨٦٨-١٩٤٤م): من أهم الرحالة العلماء الذين رحلوا وجالوا في كافة مناطق شمال الجزيرة العربية. وكانت مهماته العلمية تأخذ بعض الأحيان جوانب سياسية. وتعود علاقته بالبلاد العربية مبكراً؛ حيث أرسل من قبل رئيس الأساقفة كون فون أولمتز في بعثة دراسية إلى المدرسة التوراتية في القدس، وانتقل منها إلى جامعة القديس يوسف في بيروت، وانطلق منها في التعرف على البلاد المجاورة. وقد تبناه علمياً عالم الوراثة النمساوي موللر، وأمده بالدعم والاهتمام. قام برحلته الأولى عام ١٨٩٦م إلى صحراء الأردن؛ للبحث عن القصور الأموية فيها ورسم الخرائط. ونشر نتائج هذه الرحلة في مجلدين ضخمين. وذكر أن اكتشافاته بين عامي: ١٨٩٦-١٩٠٢م قادته إلى الحدود الشمالية لبلاد العرب السعيدة وإلى الحدود الغربية لبلاد العرب الصحراوية. وفي عام ١٩١٠م دعته الحكومة العثمانية إلى إستانبول وعقدت معه مفاوضات للقيام برحلة إلى شمال الحجاز بهدف مسح أجزاء أساسية من خط حديد الحجاز. وقام موزيل برحلة استكشافية أخرى عام ١٩١٢م إلى منطقة وسط الفرات وجنوب الهلال الخصيب. واختير موزيل - بعد نشوب الحرب العالمية الأولى - رئيساً للبعثة التي قررت ألمانيا إرسالها إلى الجزيرة العربية للعمل على توحيد قبائلها ضد الإنجليز، كما كلف فيما بعد بمهمات أخرى. وانتقل في سنة ١٩٢٠م إلى مدينة براغ أستاذاً للدراسات الشرقية في جامعتها، وتفرغ للعمل العلمي بعد ذلك، ونشر من أعماله وأخبار رحلاته برعاية الجمعية الجغرافية الأمريكية التي أصدرت أعماله في ستة مجلدات؛ هي: شمال الحجاز، الصحراء العربية، وسط الفرات، تدمر، شمال نجد، قبيلة الرولة؛ البادي، عوض، الرحالة الأوربيون إلى شمال الجزيرة العربية: منطقة الجوف ووادي السرحان (١٨٤٥-١٩٢٢م) (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص ٣٧١-٣٧٤؛ وترجم كتابه أخلاق الرولة وعاداتهم إلى اللغة العربية، موزيل، ألويس، أخلاق الرولة وعاداتهم إلى اللغة العربية، ترجمة وتعليق: محمد بن سليمان السديس، ط٢، (الرياض: مكتبة التوبة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

منكم توضيح السبب الذي من أجله أعيد الرجل من العقبة إلى معان، ولماذا لم يرخص له بالتوجه إليها مجدداً، وهل هناك محظور في توجهه إلى تلك الأماكن. المرجو إبلاغنا بذلك سريعاً»[1]. وعلى الرغم من عدم العثور على رد ولاية سوريا إلى الباب العالي، إلا أن المنع المذكور كان في إطار سياسة التدابير التي اتخذتها الحكومة تجاه الأجانب الموجهين إلى المنطقة. ويتضح من هذه البرقية أن السلطات الحكومية في المنطقة كانت حذرة من الأجانب القادمين إليها؛ بسبب ما توافر لديها من معلومات عن بعض الأعمال لهؤلاء، كانت غائبة عن أنظار الباب العالي بحسب ما يتضح من البرقية السالفة. ما أدى إلى التركيز على تحركاتهم في المنطقة.

٢ – تراقب السلطات العثمانية لرحلات الأجانب إلى شمال الجزيرة العربية

أفادت وثيقة عثمانية بتراقب السلطات العثمانية لتحركات الأجانب في شمال الجزيرة العربية[2]. فقد ذكرت هذه الوثيقة المؤرخة (في ٢٤ ربيع الثاني ١٣٢٠هـ/ ٢١ تموز ١٩٠٢م) أنه على الرغم من «سماح الباب العالي بتوجه عالم الآثار الألماني «شوماخر» لإجراء بعض الأبحاث على آثار القصر – الموسوم بـ «مشطة»[3] في موقع عمان والذي يعود إلى القرن السادس الميلادي الذي شرع فيه الإمبراطور البيزنطي «يوستينيانوس» ولم يكمله –، فيجب ترقب تحركات هذا الرحالة، كما يلزم ألا يقوم بتحريك الأحجار في هذا القصر الخرب من مواقعها وعدم القيام بإجراء أي حفريات على المكان، والسماح له فقط بالتقاط بعض الصور ونقل بعض الكتابات التاريخية ومخطط القصر يدوياً،

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف BEO.84250

(٢) مما يجدر ذكره أيضاً أن وفداً فرنسياً توجه إلى بلاد الشام (قبل ١٩ شعبان ١٣١٥هـ)؛ بحجة شراء الخيول العربية الأصيلة لاسطبلات الحكومة الفرنسية، إلا أن السلطات العثمانية اكتشفت أن الوفد المذكور يبحث عن أمور أخرى غير الخيول، وأنه كان يخطط لرسم الخرائط للمناطق التي يمر بها الوفد، الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT.2087/74

(٣) مشطة: أورد سليمان شفيق كمالي باشا وصفاً لهذا الموقع في رحلته إلى الحجاز عام ١٣٠٧هـ/١٨٩٠م؛ حيث ذكر أنه على بُعد عدة ساعات من شرقي وادي الحمام ظهرت لنا أنقاض المدينة القديمة المسماة «مشتى» (موشتا) التي تتضمن عدة آلاف من البيوت والخطوط الهيروغليفية الموجودة على معظم الأبنية تلفت النظر والعبر. وتقع بالقرب منها قلعة البلقاء، رحلة سويله مز أوغلي إلى بلاد الشام: ١٣٠٧هـ/١٨٩٠م، دراسة وترجمة وتحقيق: فاضل مهدي بيات (الأردن: جامعة آل البيت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ص ١٤٣.

وأن يزود إدارة المتحف العثماني في إستانبول بصورة منها، مع ضرورة وجود موظف حكومي بمعيته بشكل دائم؛ حتى لا يقوم بعمل مخالف عما سمح له، ويكون تحت الرقابة الدائمة. فإذا شوهد عليه خلاف ذلك، أبلغ عنه فوراً»[١]. فهذا يدل على أن الحكومة بدأت تهتم أكثر من ذي قبل بتحركات الأجانب إلى المنطقة ومنعهم منه. ومن استطاع منهم التوجه إليها وحصل على إذن بذلك بعد توسط سفارته في إستانبول، كان يراقب بدقة من الحكومة؛ حتى لا يقوم بعمل مخالف.

كما منع الباب العالي (في ٦ ربيع الأول ١٣٢٩هـ/٧ مارس ١٩١١) توجه المستشرق الألماني موريج[٢] إلى شمال غرب العقبة، على الرغم من توسط مدير المتحف العثماني في إستانبول لدى الباب العالي للمذكور الذي أبدى رغبته في مشاهدة الموقع التاريخي والتقاط بعض الصور، وتعهد بأنه لن يقوم بشيء آخر[٣].

فعلى الرغم من كل ذلك إلا أن الحكومة العثمانية لم تلتفت بشكل جدي إلى موضوع الآثار التاريخية[٤] القديمة الموجودة في مدائن صالح بشكل خاص وشمال الجزيرة العربية بشكل عام – بحسب مجموعة من وثائق الأرشيف العثماني التي اطلع عليها الباحث – إلا بعد أن ازدادت لدى الباب العالي طلبات الرحالة الأجانب ممن أراد التوجه إلى المنطقة[٥]، وتدخل السفارات التي انتمى إليها الرحالة المذكورون في السماح

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT.551/28, 577/36. MF.MKT.661/24 وعلى الرغم من ذلك فإن الحكومة العثمانية وافقت على نقل بعض قطع أحجار هذا القصر إلى برلين؛ لوضعها في متحف فريدريك الجديد، من باب الهدية. I.HUS.106/1321/Ra-126,106/1321/RA-66,106/1321/Ra.90.I.DH.1410/1321.Ra.7. DH.MKT.725/67. MF.MKT.715/12

(٢) أفادت الوثيقة العثمانية أنه عمل مديراً لمتحف الخديوية بالقاهرة. الأرشيف العثماني، تصنيف DH.ID.28-1/9

(٣) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.ID.28-1/9

(٤) يستثنى من ذلك بعض الحالات. مثل منع عالم الآثار الألماني من جلب بعض الآثار التاريخية إلى ألمانية، كما جاء وثيقة مؤرخة (في ١٤ ربيع الأول ١٣٠٩هـ/١٨ أكتوبر ١٨٩١م). الأرشيف العثماني، تصنيف Y.PRK.BSK.23/101

(٥) من ذلك على سبيل المثال أيضاً الوثيقة التي تشير إلى وصول عضو أكاديمية الفنون الإنجليزي مستر «وليام هاروَيْ» إلى القدس؛ للقيام بإجراء بعض الأبحاث على آثار المنطقة (وذلك في ٢٠ شوال ١٣٢٦هـ/١٥ نوفمبر ١٩٠٨م). الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT.2662/53

لهم برحلاتهم إليها وإلحاحها في السماح لهم بالتوجه إلى المنطقة[١]، مما أثار الشبهات لدى الباب العالي، ولاسيما بعد تأكيد محافظة المدينة المنورة على الأغراض السياسية لتلك الرحلات، مما أثار رفضها التام لتوجههم إلى المنطقة؛ حيث رفضت[٢] توجه جوسين وسافنياك[٣] إلى المنطقة بالقطار (في ٢٥ محرم ١٣٢٩هـ/٢٦ يناير ١٩١١م)، على الرغم من سماح الحكومة لهما في العام الذي قبله، وقيامهما بالرحلة إلى مدائن صالح والعلا[٤].

٣ - توجه الرحالة الأجانب إلى مدائن صالح

وقد تبين أن تركيز هؤلاء الرحالة الأجانب[٥] في التوجه إلى المنطقة بالدرجة الأولى كان منصباً على مدائن صالح وتبوك والعلا والمويلح والوجه وغيرها من مناطق شمال

(١) فقد أرسلت السفارة الألمانية في إستانبول (في ٥ شعبان ١٣٢٤هـ/٢٤ سبتمبر ١٩٠٦م) تقول في رسالتها إلى الباب العالي: إن الموسيو هرمان بورخارد - من مواطني دولة ألمانيا ومن العلماء المشهورين -، سبق أن حصل على الإذن السلطاني في إجراء دراسات لسانية في داخل سنجق نجد.. وبما أنه يريد مواصلة رحلته من المنطقة المذكورة إلى جهة الغرب منه، بالتوجه إلى صنعاء واليمن، ويرغب كذلك في تصوير بعض الأماكن، فنرجو منكم ونلتمس السماح له بذلك، الأرشيف العثماني، تصنيف I.DH.22 Ra.1322/24

(٢) والحقيقة أن هذا التشديد من محافظ المدينة المنورة تجاه الرحالة الغربيين الراغبين في التوجه إلى المنطقة، له مبرراته. من تلك المبررات التي لا يدع مجالاً للشك في الأعمال التي كان يقوم بها بعض الأجانب الغربيين في المنطقة، استهداف سياسة الدولة العثمانية فيها، والقيام بتوزيع الأسلحة على بعض القبائل، ووضع مخططات وخرائط للطرق والأماكن التي توجد بها المياه، وكيفية التعامل مع القبائل التي تقطن في المنطقة، صابان، سهيل، خطاب عربي في الأرشيف العثماني لشارل هوبر، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، س١١، ع١، (المحرم - جمادى الآخرة ١٤٢٦هـ/مارس - أغسطس ٢٠٠٥م)، ص ٢٩١-٣٠٠.

(٣) أنطوان جوسين ورفائيل سافنياك: رحالان فرنسيان، زارا مدائن صالح ثلاث مرات بتمويل من المعهد الآثاري الإنجيلي في القدس والجمعية الفرنسية للتنقيب الأثري، كانت الأولى في مارس-إبريل ١٩٠٧م، والثانية في فبراير- مايو ١٩٠٩م، والثالثة في إبريل ١٩١٠م. كما زارا العلا، وهما أول من رسم خريطة للمدينة القديمة بالعلا، وهما من أوائل من درسوا الفن المعماري الجنائزي لمجموعة مقابر مدائن صالح، وترتيب المقابر بحسب أشكالها وطرزها المعمارية المختلفة بناءً على العناصر المعمارية التي تتميز بها، كما أنهما ركزا على المنشآت الدينية مثل الديوان والمعبودات والمحاريب والمقاصير الموجودة في جبل إثلب، وسجلا الكثير من النقوش النبطية والمعينية ونقوش خط البادية (الثمودي) واليونانية وغيرها، وبناءً على ذلك فإنهما يعدان الرائدين الحقيقيين لدراسة نقوش شمال الجزيرة العربية: المعينية واللحيانية والثمودية والنبطية، وقد نشرت دراستهما في كتاب باللغة الفرنسية عام ١٩٠٩ و١٩١٤م؛ الانصاري، عبدالرحمن وآخرون، العلا ومدائن صالح (الحجر): حضارة مدينتين (الرياض: دار القوافل، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م)، ص ٣٦، ٣٩، ٨٣-٨٤؛ الذييب، سليمان بن عبد الرحمن، مدونة النقوش النبطية في المملكة العربية السعودية (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣١هـ)، ص ١/٢٢-٢٣.

(٤) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.ID.28-1/4

(٥) بشيء من التفصيل عن هؤلاء الرحالة انظر: صابان، سهيل، تصاريح السفر للرحالة المستشرقين إلى الجزيرة العربية من خلال الوثائق العثمانية، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج٩، ع١، (المحرم - جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ/مارس - أغسطس ٢٠٠٣م)، ص ٢١٧-٢٣٧.

الجزيرة العربية. من هؤلاء: جوسين وسافنياك[١] اللذين رغبا في التوجه إلى الوجه والمويلح بحسب الطلب الذي تقدما به[٢]، والألماني موريج الذي طلب التوجه إلى المدائن الواقعة في جنوب شرق العقبة[٣]، وقوبان بارتو الفرنسي الذي تقدم بطلب إلى سفارة بلاده في إستانبول؛ للتوسط لدى الباب العالي في السماح له بالقيام برحلة بحث فنية في الآثار القديمة وتحري المعادن في منطقتي العقبة والوجه[٤]، والدكتور ماكس فروور الألماني – الأستاذ في جامعة مدينة ينا الألمانية – إلى العقبة والوجه؛ لإجراء بعض الدراسات الفنية في المنطقة[٥] وألويس موزيل النمساوي إلى شمال الجزيرة العربية؛ لإجراء دراسات علمية على بعض المباني التاريخية[٦] والطبيب والرحالة الفرنسي شارل هوبر[٧] – مكتشف حجر تيماء الأثري[٨] – إلى حائل والعلا وتيماء[٩]، والبارون أدوارد

(١) من اللافت للنظر - أنه على الرغم مما نشراه من أعمال علمية عن نتائج رحلاتهم إلى المنطقة في الفترة ما بين ١٩٠٧-١٩١٢م -، أنهما كانا يعملان لصالح المخابرات الفرنسية والبريطانية، وهما لم يترددا في المشاركة بنقل العملاء الفرنسيين والبريطانيين المكلفين بالتسلل خلف الخطوط العثمانية؛ بل إن جوسين اقترح على البريطانيين عندما كان يعمل في مخابراتهم إرسال مسلمين جنسياتهم فرنسية وبريطانية؛ لمساعدة الشريف في حربه ضد الأتراك؛ لاعتقاده بضعف الشريف حسين وسذاجته، كما أنه هو الذي أشار بتخريب الخط الحديدي الحجازي؛ لإعاقة الإمدادات العثمانية إلى المنطقة، الذييب، مدونة النقوش النبطية في المملكة العربية السعودية، ص ١/٢٥.

(٢) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.ID.28-1/14

(٣) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.ID.28-1/9

(٤) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.ID.28-1/51

(٥) (٩٢) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT. 350/27 ، وذلك بحسب ما جاء في خطاب الموافقة على زيارته من الباب العالي إلى نظارة الداخلية في (٣٠ شعبان ١٣١٢هـ/٢٦ فبراير ١٨٩٥م).

(٦) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MUI.85/27

(٧) (٩٤) شارل هوبر (١٨٣٧-١٨٨٤م): رحال فرنسي، قام برحلة استكشافية إلى مناطق شمال الجزيرة العربية، وعثر على أبرز اكتشاف أثري في المنطقة، هو حجر تيماء، كما يعدّ من أوائل الذين اكتشفوا الكتابات السبئية الحميرية في اليمن وشمال الجزيرة العربية، وعمل على حل رموزها، واغتيل من قبل دليليه اللذين كانا يرشدانه إلى الطريق بالقرب من العلا (عام ١٨٨٤م). وقد تُرجم كتابه الذي ضم رحلته الاستكشافية الأولى (١٨٧٨-١٨٨٢م) إلى اللغة العربية بعنوان: هوبر، شارل، رحلة في الجزيرة العربية الوسطى،ترجمة: نجيب العقيقي، ط٤، (القاهرة: دار المعارف، (د.ت))، ص ١-٣٨٨؛ هوبر، شارل، رحلة في الجزيرة العربية الوسطى: ١٨٧٨-١٨٨٢م، ترجمة: إليسار سعادة (بيروت: دار كتب، ٢٠٠٣م)، ص ٩-١٠.

(٨) هوبر، شارل، رحلة في الجزيرة العربية الوسطى، ص ٩.

(٩) الأرشيف العثماني، تصنيف Y.PRK.UM.6/100

نولده[١] الروسي إلى الجوف وحائل[٢]، والدكتور الألماني بوستارين إلى ولاية سوريا ومنح الإذن له في هذا الصدد (في ١٦ جمادى الآخرة ١٣١٨هـ/١١ أكتوبر ١٩٠٠م)[٣]، وعالم الآثار الألماني الدكتور بترسن وزميله البروفسور هولجر إلى ولايات سوريا وبيروت والقدس الشريف[٤]. وقد زاد الأخير في طلبه (في ٢٥ رجب ١٣٢١هـ/١٧ أكتوبر ١٩٠٣م) برغبته في إجراء بعض الأبحاث في بعض مكتبات فلسطين[٥].

وكان بعض من هؤلاء الرحالة يتحجج بأنه يريد التوجه إلى القدس الشريف والشام؛ لزيارة بعض آثارهما التاريخية[٦]. وقسم آخر كان يريد التوجه إلى اليمن؛ لإجراء بعض التحقيقات على الآثار القديمة الموجودة بها[٧]. كما توسطت السفارة الأمريكية في إستانبول لدى الخارجية العثمانية بالسماح لسبعة من مواطنيها (هم: و.ق. ادى، وج.س

(١) البارون إدوارد نولده (١٨٤٩-١٨٩٥م)؛ ولد في كورلاند لأسرة ألمانية في لاتفيا التي كانت تحت الحكم الروسي، تلقى تعليماً خاصاً حتى وصل إلى المرحلة الثانوية، وترك الدراسة بعد ثلاث سنوات، وفي عام ١٨٧٠م دخل متطوعاً في كتيبة الحرس الموجودة في وارسو، ثم تركها بعد سنة ونصف قبل أن يتخرج ضابطاً، وذهب إلى إسبانيا عام ١٨٧٢م؛ ليعمل في صفوف فرسان كارل، وترقى إلى رتبة ملازم وقاد سرية من الفرسان حتى نهاية عام ١٨٧٦م، ورحل في عام ١٨٧٧م إلى أمريكا الجنوبية، ثم عاد بعد سنة إلى بطرسبورغ، وتعين فيها في وظيفة مفتش ضريبة خمور، ونشر في صحيفة هيرولدا مقالات عن عمله. وسافر في عام ١٨٨٨م إلى إستانبول، ومنها قام برحلات إلى إفريقيا، وانتحر في الحادي عشر من مارس ١٨٩٥م، في لندن وهو في السادسة والثلاثين من عمره، ومن خلال رسالته إلى السفارة الروسية تأكد أنه كان يعمل سرياً لحساب القيصر الروسي، وأن رحلته إلى الجزيرة العربية كانت تهدف خدمة المصالح الروسية، وقبل وفاته سلم نولده إلى الناشر الألماني ريتشارد أندريه مخطوطته، التي صدرت في كتاب بعد أشهر قليلة من انتحاره كاتب بعنوان: رحلة في وسط الجزيرة العربية وكردستان وارمينيا؛ حيث احتوى الكتاب على اليوميات التي خصص فصل منها لرحلته إلى الجوف ووادي السرحان؛ البادي، الرحالة الأوربيون إلى شمال الجزيرة العربية، ص ٢٥٧-٢٥٨؛ البادي، عوض، الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية عند نهاية القرن التاسع عشر: نص رحلة البارون إدوارد نولده مبعوث روسيا إلى نجد عام ١٨٩٢م-١٣١٠هـ (الرياض: دار بلاد العرب، ١٩٩٧م)، ص ١١-١٢.

(٢) الأرشيف العثماني، تصنيف Y.A.HUS.265/18

(٣) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT.2413/108

(٤) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT.667/36

(٥) الأرشيف العثماني، تصنيف Y.PRK.MF.4/84

(٦) من ذلك على سبيل المثال طلب السفارة النمساوية من الخارجية العثمانية بمنح الإذن لرحلة البروفسور موزيل وصديقه هافز إلى القدس والشام؛ لزيارة بعض المواقع المباركة فيهما، والسماح لهم بذلك من قبل الصدر الأعظم في (١٢ ذي القعدة ١٣١٥هـ/٤ إبريل ١٨٩٨م). الأرشيف العثماني، تصنيف I.HR.358/1315.Za-4

(٧) منها على سبيل المثال الوثيقة التي تتحدث عن سماح الباب العالي للدكتور غلازر النمساوي في التوجه إلى اليمن؛ لإجراء بعض البحوث الأثرية في بعض مناطقها؛ وطلب الباب العالي من ولاية اليمن بتقديم المساعدات اللازمة إليه، وذلك (في ١٧ ذي الحجة ١٣٠٩هـ/١٣ حزيران ١٨٩٢م). الأرشيف العثماني، تصنيف Ayniyat.no.1704.p.201

دولتيل، وهوسكنس، وساموئيل ف. فرانكي) المقيمين في سوريا بزيارة الأردن والسلط (في ١٧ جمادى الثانية ١٣١٦هـ/٢ نوفمبر ١٨٩٨م)[١].

٤ - موقف الباب العالي من رحلات الأجانب إلى شمال الجزيرة العربية والتدابير التي اتخذها في هذا الصدد

إن توجه مجموعة من الرحالة الأجانب إلى شمال الجزيرة العربية في فترة تاريخية متقاربة (في العقد الثاني والثالث من القرن الرابع عشر الهجري، العقد الأول والثاني من القرن العشرين الميلادي)، وإلحاح سفاراتهم على الباب العالي بالسماح لهم في هذا التوجه، ووصول تقارير من الإدارات المحلية في المنطقة تفيد بقيام هؤلاء الأجانب بأعمال سياسية في المنطقة (من خلال مقابلة بعض زعمائها[٢] وتوزيع الأسلحة على بعض قبائلها)[٣]، والشكوك التي حامت حول قيام بعض من هؤلاء الرحالة بسرقة بعض الآثار التاريخية من المنطقة إضافة إلى أعمال التجسس لحساب حكوماتهم[٤]، كل ذلك دفع الباب العالي؛ لاتخاذ بعض الإجراءات؛ للحيلولة دون دخول هؤلاء الأجانب إلى المنطقة، أو على أقل تقدير تقليل عددهم إلى أدنى حد ممكن. فإضافة إلى التعليمات الخاصة التي أصدرتها الحكومة العثمانية عن القواعد المتبعة في كيفية الحصول على التصريح اللازم؛ للبحث في الآثار التاريخية القديمة، واتباع القواعد الموضوعة في هذا

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MKT.2127/27

(٢) من ذلك على سبيل المثال قيام مندوب عن الإمبراطور الألماني، باسم مستعار «عبد الكريم باشا» بزيارة الشيخ سليمان ابن رفادة باشا في الوجه، ومنحه الوسام الألماني من الدرجة الثالثة باسم الإمبراطور. وقد أبلغ الباب العالي بذلك محافظ المدينة المنورة حسن بن حسين بصري (في ١٨ ربيع الأول ١٣٣٣هـ/٣ فبراير ١٩١٥م)، وما تحمله هذه الزيارة في طياته من أمور سياسية، لا يجب السكوت عليه، ولا يمكن قبوله بحال من الأحوال.. الأرشيف العثماني، تصنيف DH.EUM.7.Sube.3/16

(٣) فقد أشار سليمان شفيق كمالي باشا إلى سعي الأجانب لتأسيس علاقات سياسية مع الأمير ابن رشيد، حيث استقبل سواحاً من الدول الأجنبية مثل فرنسا وبريطانيا، كما ذكر قيام فرنسا بإرسال ٢٤ بندقية ماوزر إليه من خلال مبعوثين خاصين؛ بغية إقامة علاقات معه. رحلة سويله مز أوغلي إلى بلاد الشام. مرجع سابق. ص ٤٩.

(٤) لقد شهدت بدايات القرن العشرين حتى اكتمال تجزئة المشرق العربي في عشرينيات هذا القرن، هجمة استخباراتية، أبطالها - رجالاً ونساءً - يعملون لصالح الاستخبارات الألمانية والبريطانية والفرنسية في مناطق نفوذ الدولة العثمانية، في محاولة منهم لتهيئة الأوضاع لخلافتها. الرحالة الأوربيون إلى شمال الجزيرة العربية. مرجع سابق. ص ٣٤٥.

الصدد في سائر أنحاء الدولة العثمانية[١]، فقد وردت إلى الباب العالي إخبارية (قبل ١٧ جمادى الأولى ١٣٢٨هـ/٢٧ مايو ١٩١٠م) أفادت بقيام بعض الأجانب بسرقة بعض الآثار من مدائن صالح. وبناءً على ذلك فقد أصدر الباب العالي أمره بإجراء تحقيق شامل في الموضوع، واتخاذ تدابير لازمة في هذا الصدد[٢].

وقد ضمت مجموعة من الوثائق في هذا التصنيف[٣] المراسلات التي جرت بين المنطقة والباب العالي بشأن آثار مدائن صالح. إلا أنها لم تفصح عن الآثار التاريخية التي جرى تهريبها من هذا الموقع، ومن هم الذين قاموا بعملية سرقة تلك الآثار. ففي البرقية التي بعثها محافظ المدينة المنورة إلى نظارة الداخلية (في ٩ ربيع الثاني ١٣٢٨هـ/٢٠ إبريل ١٩١٠م) ذكر «أن موظفي المستودعات والقطار الأجانب وبعض السائحين يسرقون آثار مدائن صالح التاريخية القديمة بتعاون من بعض البدو. مشيراً فيها إلى أن اثنين من الفرنسيين قاما في العام الماضي بسرقة بعض تلكم الآثار. وقد أبانت المذكرة التي بعثتها نظارة الداخلية إلى نظارة المعارف التي كانت مسؤولة عن الآثار التاريخية بأن الأجانب المذكورين إنما كانوا يعملون في خط حديد الحجاز[٤]، وأنه لابد من الاهتمام بتلك الآثار. وبناءً على ذلك فقد قامت مديرية تبوك بإجراء تحقيق في الموضوع، حيث أوضحت نتيجة التحقيق في البرقية التي بعثتها إلى ولاية سوريا في (١٨ ربيع الثاني

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف I.DUIT.116/61

(٢) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MUI.88/46

(٣) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MUI.88/46 الوثائق الموجودة في هذا الرقم من التصنيف تقع في عشر صفحات، وهي المراسلات المتبادلة بين الباب العالي ومحافظة المدينة المنورة وولاية سوريا ومديرية تبوك وقائممقامية معان.

(٤) خط حديد الحجاز: المشروع الذي تبناه السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣-١٣٢٧هـ/١٨٧٦-١٩٠٩م) ضمن سياسته للجامعة الإسلامية الرامية للم شمل المسلمين تحت راية الخلافة الإسلامية، والاستفادة منها في دعم الحكم العثماني في مواجهة السياسات الغربية في البلاد الإسلامية. وبدأ بتنفيذ هذا المشروع الذي يمد المواصلات الحديدية بين دمشق والمدينة المنورة في (ذي الحجة ١٣١٧هـ/إبريل ١٩٠٠م). وانتهى منه (عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م). وقد حقق بذلك ثلاثة أهداف رئيسة هي: تسهيل الحج وجعله في متناول الجميع، وتقوية الحكم المركزي والقضاء على الثورات وتوطيد الأمن والاستقرار، وتنمية الحياة الزراعية على طول الخط. وقد عمل الخط منذ وصوله إلى المدينة المنورة في التاريخ المذكور وحتى نشوب الثورة العربية الكبرى (عام ١٣٣٦هـ/١٩١٦م. للتفصيل انظر: تطور الأوضاع الثقافية في تركيا من عهد التنظيمات إلى عهد الجمهورية/سهيل صابان. (فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م). ص ٣٥٣-٣٥٦.

١٣٢٨هـ/٩ مايو ١٩١٠م) بأنها لم تعثر على شيء من الآثار التاريخية المعدّة للسرقة في مدائن صالح، مع الإشارة إلى أن الرهبان الفرنسيين[١] الذين قدموا إليها قد غادروها إلى الشام قبل خمسة أيام، وأنه بالاعتماد على شهادة رجال الأمن المرافقين لهؤلاء الرهبان، فإنهم لم يقوموا بشيء أثناء زيارتهم لمدائن صالح سوى تصويرها، مع الإشارة إلى أن الحفر الموجودة في العديد من الأماكن إنما قام بحفرها أهالي العلا كما لا يخفى عند الأهالي جميعاً. وبناءً على ذلك فقد أصدرت الحكومة مجموعة أوامر إلى الإدارات الحكومية في المنطقة، طلبت فيها إبراز الاهتمام اللازم بآثار المنطقة التاريخية، وعدم السماح للأجانب بالتوجه إليها؛ خوفاً من سرقة شيء من مقتنياتها التاريخية، التي لابد من صونها وحمايتها على أفضل وجه»[٢].

وكإجراء احترازي آخر بناءً على الأهمية السياسية والتاريخية لمدائن صالح، فقد اتخذ الباب العالي خطوة أخرى في هذا الصدد، حيث أصدر أمره بإلحاق مدائن صالح وتبوك؛ بل حتى العقبة[٣] بمحافظة المدينة المنورة في ولاية الحجاز، وفك ارتباطها بولاية سوريا[٤]؛ حفاظاً على تلك الآثار التاريخية الموجودة بها؛ حيث أفادت مجموعة من المراسلات التي جرت بين الباب العالي وولايتي سوريا والحجاز (بدءاً من ٢٨ رجب ١٣٢٨هـ/٥ أغسطس ١٩١٠م وما بعدها) «أن ارتباط مدائن صالح الثرية بآثارها التاريخية بولاية سوريا، يسمح للأجانب بالتوجه إليها دون قيود. وحتى يتم القضاء

(١) ذكرت الوثيقة العثمانية أن هؤلاء الرهبان قد قاموا بزيارة المنطقة بعد أن حصلوا على الإذن اللازم من الباب العالي بالتوجه إلى شمال الجزيرة العربية؛ لإجراء بعض البحوث الأثرية (في ٢ شعبان ١٣٢٥هـ/١٠ سبتمبر ١٩٠٧م). الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MUI.88/46

(٢) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MUI.88/46

(٣) ذكر والي الحجاز عثمان نوري باشا في تقرير له قدمه إلى الباب العالي (في ٢٤ ربيع الآخر ١٣٠٧هـ/١٨ ديسمبر ١٨٨٩م) أن الحدود الطبيعية لولاية الحجاز تمتد حتى منتهى خليج العقبة، وأن العقبة تدخل ضمن حدود ولاية الحجاز. الأرشيف العثماني، تصنيف Y.MTV.41/78

(٤) ذكر فاضل مهدي بيات أن الذي أشار إلى أهمية العقبة وسعى لـ«إبطال حكم التقسيم الغريب» هو والي الحجاز عثمان نوري باشا، الذي مد نفوذ الحكومة إليها. رحلة سويله مز أولي. مرجع سابق. ص ٥١.

على ذلك فقد صدر المرسوم السلطاني بربط المنطقة بولاية الحجاز، التي لا يسمح بدخول الأجانب إليها»[1]. بل إن الدولة لم تكتف بذلك؛ وإنما أكدت على ربط العقبة أيضاً بمحافظة المدينة المنورة في ولاية الحجاز[2]؛ حتى لا يستطيع الأجانب استملاك الأراضي فيها. وقد نصت إحدى الوثائق على «أن الأجانب يريدون من خلال استملاك الأراضي في تبوك ومدائن صالح ثم الإحاطة بالعقبة والوجه من الخلف، والاستمرار في التوجه إلى مدائن صالح وحتى العلا؛ للاستيلاء على الآثار القديمة فيها بمختلف الحيل والدسائس، يضاف إلى ذلك عدم وجود فرق بين أهالي تبوك ومدائن صالح وبين أهالي الحجاز من حيث الوضع الاجتماعي والجغرافي. ولهذا فقد تقرر تحويل تبوك إلى قضاء ومدائن صالح إلى بلدة»[3] في التشكيلة الإدارية الجديدة.

الخاتمة

إن الوثائق المتعلقة بشمال الجزيرة العربية بشكل عام ومدائن صالح بشكل خاص في الأرشيف العثماني قليلة بالمقارنة بوثائق المناطق الأخرى من الجزيرة العربية. وحتى هذه الوثائق الموجودة إنما تعود إلى الفترة الأخيرة من حكم العثمانيين للمنطقة. والسبب الأساس في ذلك بحسب رأي الباحث هو عدم وجود حكم عثماني مباشر في المنطقة إلا في فترات قليلة واستثنائية. ونظراً لأن المنطقة صحراوية، فلم يكن بمقدور العثمانيين تأسيس الإدارات الحكومية وتوفير عدد كبير من العساكر فيها إلا في السنوات الأخيرة من حكمها. لكن في مقابل ذلك كان اهتمامهم ببرك المياه ومنازل

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MUI.61-2/24

(٢) تجدر الإشارة إلى أن التشكيلات الإدارية لولاية الحجاز قد تم تنظيمها في أواخر العهد العثماني من جديد بعد ربطها بشكل مباشر بإستانبول بعد عام ١٨٤٠م (أي بعد فكها من مصر في عهد محمد علي باشا). فشملت منطقة واسعة ارتبطت بها إدارياً. وهي: جدة، ومكة المكرمة والطائف والمدينة المنورة وينبع ورابغ وتبوك حتى وصلت في الشمال إلى خليج العقبة. وأصبحت مساحتها ٤٥ر٢٠٠ كلم مربع.

Hicaz/Zekeriya Kursun. TDV.Islam Ansiklopedisi:17/438

(٣) الأرشيف العثماني، تصنيف DH.MUI.61-2/24

الطريق والقلاع الواقعة فيها اهتماماً كبيراً؛ لكونها واقعة على درب الحجيج.

كما أن انتباه الحكومة العثمانية لآثار مدائن صالح التاريخية لم يأت إلا في الفترة الأخيرة من حكمها، بعدما وصلت إلى مسامعها سرقة بعض تلك الآثار وتهريبها إلى أوربا، وبعد أن ازدادت طلبات الأجانب الراغبين في التوجه إلى المنطقة. فاتخذت إجراءات إدارية لم تحرز نجاحاً كبيراً للحيلولة دون سرقة تلك الآثار.

****

الوثـائــق

نماذج من صور الوثائق العثمانية المستخدمة في البحث

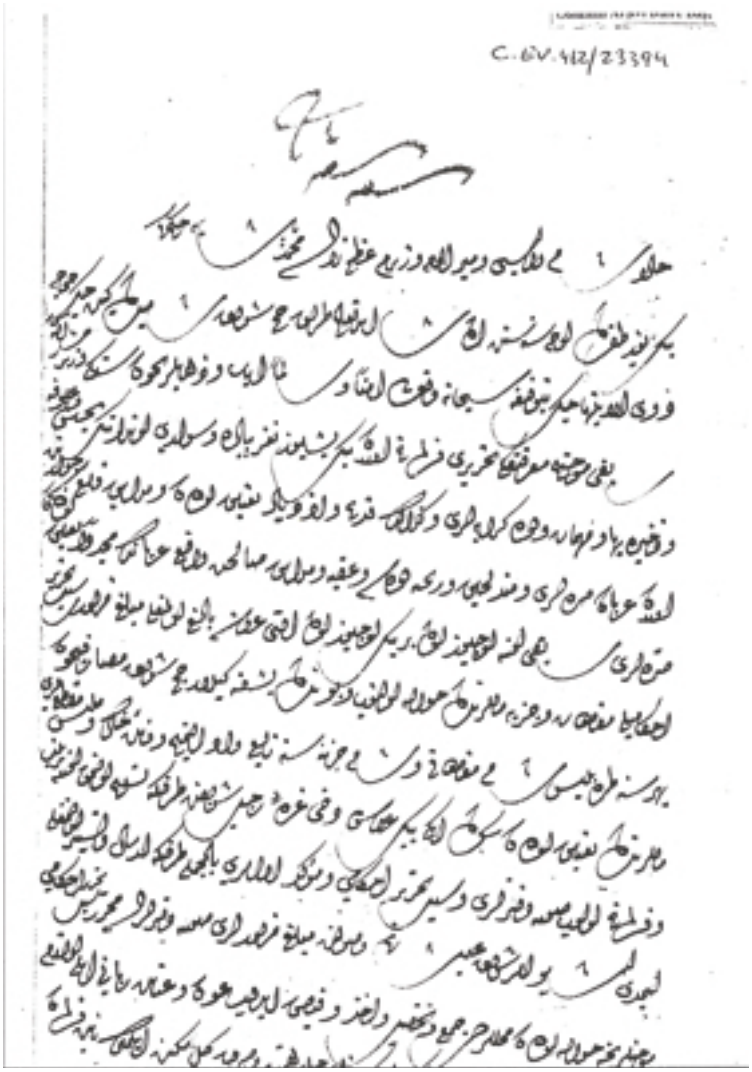

مخصصات العربان في الطريق الواقع بين العقبة ومدائن صالح ١١٩٣هـ/١٧٧٩م

ترميم قلعة مدائن صالح وبركتها عام ١٢٠٣هـ في الخطاب السلطاني الصادر عام ١٢٠٩هـ/١٧٩٥م

توجه اثنين من الرحالة الروس إلى حائل عام ١٣١٠هـ/١٨٩٢م

توجه البارون نولده الروسي إلى الجوف ٢٦ شوال ١٣١٠هـ/١٨٩٣م

التقرير المقتضب الذي بعثه نولده إلى الباب العالي عام ١٨٩٣م/١٣١٠م

عرض بعض الآثار البيزنطية في متحف برلين ١٣١٨هـ/١٩٠٠م

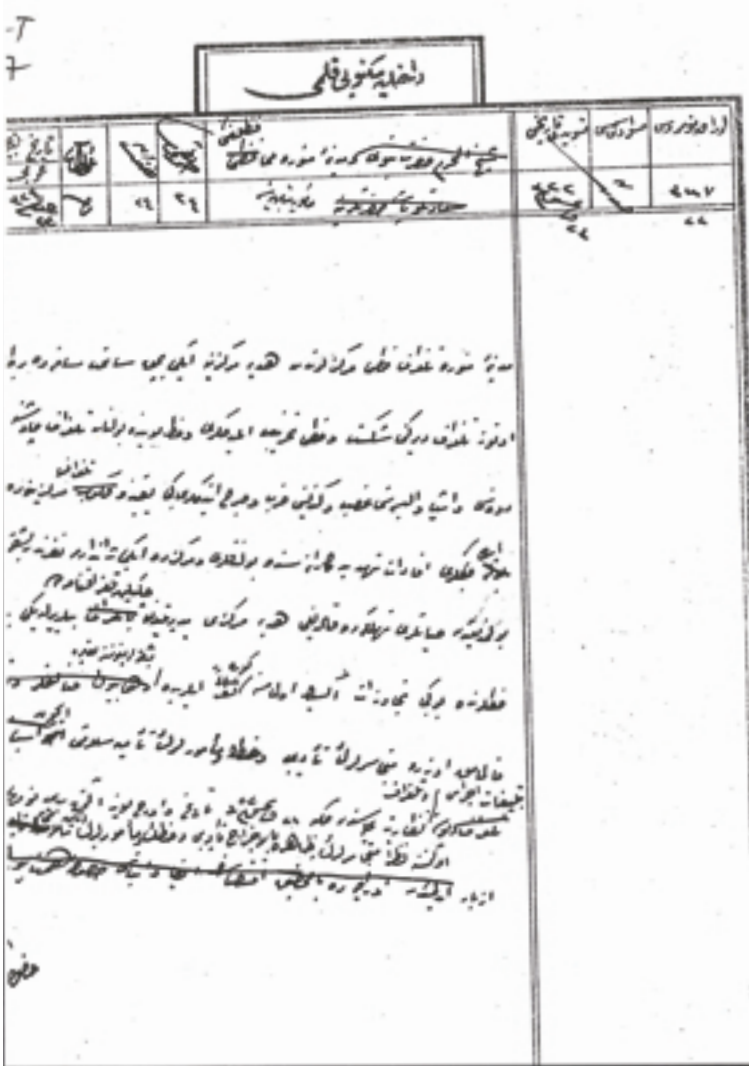

تخريب خط البرقية في موقع هدية بالقرب من مدائن صالح عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م

كثير من الآثار التاريخية القيمة في مدائن صالح وضرورة الاهتمام بها ١٣٢٨هـ/١٩١٠م

توجه جوسين وسفنياك إلى مدائن صالح ١٣٢٩هـ/١٩١١م

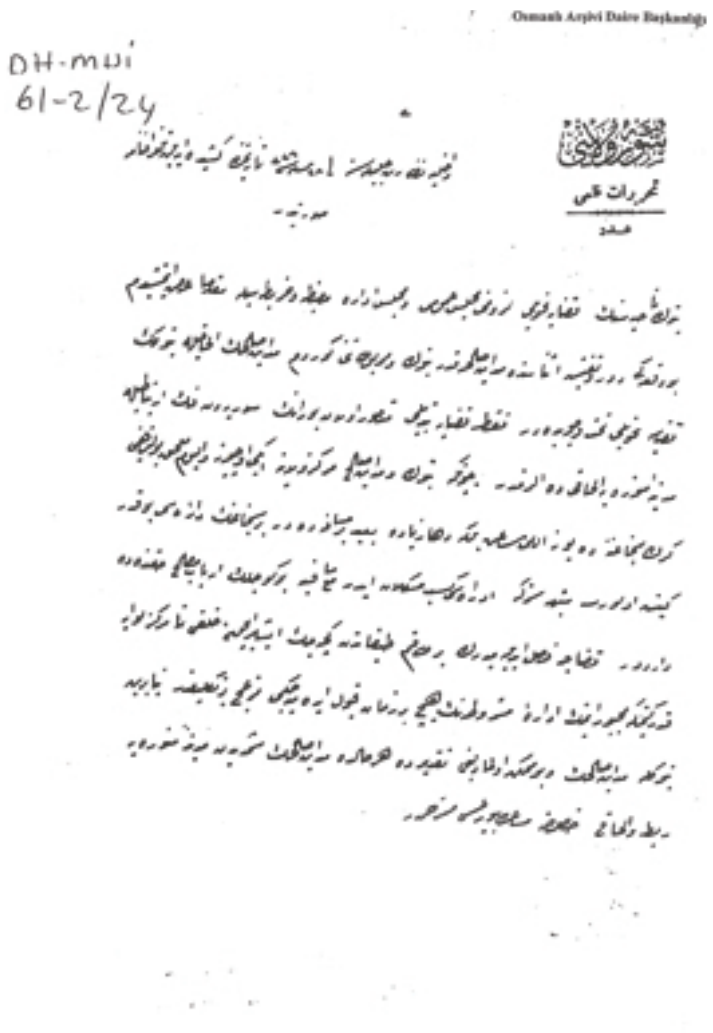

فك ارتباط شمال الجزيرة العربية من ولاية سوريا وربطها بالمدينة المنورة؛ بسبب الآثار القديمة في مدائن صالح عام ١٣٢٨هـ/١٩١٠م

التصديق على القرار الصادر في حق المتجاسرين لسرقة مستشفى مدائن صالح

منازل طريق الحج من العقبة وحتى المدينة المنورة

خط سكة حديد الحجاز